□ علوُّ الهمَّة في الاستقامة □

اعلم يا أخي أنَّ الاستقامة روحٌ تحيا به الأحوال ، وزكـاة تربو عليها الأعمال ، فلا زكاء للعمل ، ولا صحَّة للحال بدونها .

قال الله تعالى : ﴿ **إنّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التي كُنتم تُوعَدُون** ﴾ [فصلت : ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحابُ الجنَّة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الأحقاف : ١٣ - ١٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فاسْتَقِم كما أُمِرتَ ومَن تابَ معك ولا تَطْغَوْا إنَّه بما تعملونَ بصير** ﴾ [هود : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكم يُوحىٰ إلَيَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه ....** ﴾ الآية . [فصلت : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسْقيناهم ماءً غَدَقًا لنفتنهم فيه ....** ﴾ الآية . [الجن : ١٦] .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولًا ، لا أسأل عنه أحدًا غيرك . قال : « قل : آمنتُ بالله . ثم اسْتقِم » .

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن » .

والمطلوب من العبد الاستقامة ، وهي السداد ، فإن لم يقدر عليها ، فالمقاربة . فإن نزل عنها ، فالتفريط والإضاعة . كما في صحيح مسلم من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلّا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْل » . فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها ؛ فأمَر بالاستقامة ، وهي السداد ، والإصابة في النيَّات والأقوال والأعمال . وأخبر في حديث ثوبان : أنهم لا يُطيقونها ، فنقَلهم إلى المقاربة ، وهي أنْ يقرُبوا من الاستقامة بحسَب طاقتهم ؛ كالذي يرمي إلى الغرض ، فإن لم يُصِبْه يُقاربه . ومع هذا أخْبرَهم أنَّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة ؛ فلا يَركن أحدٌ إلى عمله ، ولا يعجب به ، ولا يرى أنَّ نجاتَه به ، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله .

فالاستقامة كلمةٌ جامعة ، آخِذةٌ بمجامع الدّين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصّدق ، والوفاء بالعهد .

الاستقامة على مَحْض التوحيد :

ولقد سُئل صدِّيق الأُمَّة وأعظمها استقامةً - أبو بكر الصديق رضي الله عنه - عن الاستقامة ، فقال : أن لا تشرك بالله شيئًا . فأراد بها الاستقامة على مَحْض التوحيد .

قال مجاهد : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله ، حتى لحقوا بالله .

قال شيخ الإسلام الهروي : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ . إشارةٌ إلى عين التفريد .

قال ابن القيم : يريد أنه أرشدَهم إلى شهود تفريده ، وهو أن لا يَرَوْا غيرَ فردانيَّته . وتفريدُه نوعان ؛ تفريدٌ في العِلْم والمعرفة والشهود ، وتفريدٌ في الطَّلَب والإرادة ، وهما نوعا التوحيد .

ومَن استقام على مَحْض التوحيد الصّادق الذي يدين به الصدّيق ، واستقام له توحيدُه على العِلم الصادق بأسماء الله وصفاته ، وآثارها في الأنفس والآفاق - استقام في كلِّ شأنه على الصراط المستقيم ، فاستقام له كلُّ عمل وكلُّ حالٍ .

الاستقامة على الأمْر والنهي :

وفسَّرها الفاروق بالاستقامة على الأمْر والنهي :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعالب .

قال الشاعر :

كـلَّ يـوم تتلـوَّنْ   غير هذا بك أجْمَلْ

قال أرباب الإشارات : لا يكن حال الرجل كحال الكلب ؛ يأتي إلى السَّبُع ويقول : ياملك الغابة ، غَيِّر لَيَ اسمي ؛ فإن « كلب » اسمٌ قبيح . فيقول له السبع : إذن فاحتفظ بقطعة اللحم هذه إلى الليل ، فإن احتفظتَ بها غيَّرنا لك الاسم . فإذا كان عند الظهيرة واشتدّ به الجوع ، نظر إلى قطعة اللحم وقال : كلب كلب ، إنّ « كلب » اسم جميل . ثم التهم قطعة اللحم ، فلمّا كان الليل أتى إلى الأسد فقال له : غيِّر لي اسمي . فقال له السبع : ائتمنَّاك بعض يوم على قطعة من اللحم فلم توفِّ ، فكيف نأتمنُك على الاسم الجميل ؟!!

قال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما : استقاموا : أدَّوْا الفرائض .

قال الحسن : استقاموا على أمْر الله ؛ فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

الاستقامة هي الإخلاص :

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : استقاموا : أخلصوا العمل لله .

الاستقامة على المحبّة :

وفسَّرها ابن تيمية بالاستقامة على المحبَّة .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (١٠٤/٢) : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّسْ الله روحه - يقول : استقاموا على محبَّته وعبوديَّته ، فلم يلتفتوا عنه يَمْنةً ولايَسْرة .

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات . فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله ، وعلى أمْر الله .

قال بعض العارفين : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحرِّكة في طَلَب الكرامة ، وربُّك يطالبك بالاستقامة .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول : أعظم الكرامة لزومُ الاستقامة »[(١)] .

لله درُّ ابن تيمية ، فالاستقامة شَرَفٌ وعِزٌّ ... والكرامة حَيْضُ الرجال .

والاستقامة هي الاعتدال ، وردُّ الجهالات إلى السُّنَّة ، والمتابعة في مسائل الاعتقاد ومسائل العمل والعبادة .

يقول ابن تيمية : « الرأي المُحْدَث في الأصول ، وهو الكلام المحدَث . وفي الفروع ، وهو الرأي المحدَث في الفقه . والتعبد المحدث ؛ كالتصوُّف المُحدَث ، والسياسة المُحدَثة »[(٢)] .

درجات الاستقامة :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ، لا عاديًا رَسْمَ العِلْم ، ولا متجاوزًا حَدَّ الإخلاص ، ولا مخالفًا نهجَ السُّنَّة » .

قال ابن القيم : « هذه درجة تتضمَّن ستة أمور ؛ عملا واجتهادًا فيه : وهو بَذْل المجهود . واقتصادًا : وهو السلوك بين طرفي الإفراط ؛ وهو الجوْر على النفوس ، والتفريط بالإضاعة . ووقوفًا مع ما يرسمه العلم ، لا وقوفًا مع داعي الحال . وإفراد المعبود بالإرادة : وهو الإخلاص . ووقوع الأعمال على

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٠٥ .

(٢) الاستقامة لابن تيمية ١/ ٣ ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، طبع مؤسسة قرطبة .

الأمْر : وهو متابعة السنة .

فبهذه الأمور الستة ، تتمُّ لأهل هذه الدرجة استقامتهم ، وبالخروج عن واحد منها ، يخرجون عن الاستقامة ؛ إمّا خروجا كليًا ، وإمّا خروجًا جزئيًّا .

والسّلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا - وهما الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة - فإن الشيطان يَشُمُّ قلْب العبد ويختبره ؛ فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة ؛ أخرجه عن الاعتصام بها . وإن رأى فيه حرصًا على السنة ، وشدَّة طَلَب لها ؛ لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمَره بالاجتهاد ، والجوْر على النفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلا له : إن هذا خيرٌ وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أكْمل ، فلا تفتر مع أهْل الفتور ، ولا تنم مع أهل النوم . فلا يزال يحثُّه ويحرِّضه ، حتى يُخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدِّها ، كما أنَّ الأول خارج عن هذا الحد ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر . وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاستقامة صلاتَهم مع صلاتِهم ، وصيامَهم مع صيامِهم ، وقراءتهم مع قراءتهم .

وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة ، ولكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة ، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف .

وقال بعض السلف : ما أمر الله بأمْر إلا وللشيطان فيه نزغتان ؛ إمّا إلى تفريط ، وإمَّا إلى مجاوزة ؛ وهي الإفراط ، ولا يبالي بأيهما ظفر ؛ زيادة أو نقصان .

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « ياعبد الله ابنَ عمرو ، إن لكلِّ عاملٍ شِرَّة ، ولكلِّ شِرَّةٍ فتْرة ؛ فمن كانت فترته إلى سنة أفْلَح ، ومَن كانت فتْرته إلى بدعة خاب وخسر » . قال له ذلك حين أمَره بالاقتصاد في العمل .

فكل الخير في اجتهادٍ باقتصاد ، وإخلاص مقرون بالاتباع ، كما قال بعض الصحابة : اقتصاد في سبيل وسُنَّة ، خير من اجتهاد في خلافِ سبيلٍ وسنّة ، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء - عليهم السلام - وسنتهم .

وكذلك الرياء في الأعمال يُخرجه عن الاستقامة ، والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا » .

قال الهروي :« **الدرجة الثانية** : استقامة الأحوال ؛ وهي شهود الحقيقة لا كَسْبًا ، ورفْض الدعوى لا علمًا ؛ والبقاء مع نور اليقظة لا تحفُّظًا » .

قال ابن القيم : « يعني أنَّ استقامة الحال بهذه الثلاثة ، أما« شهود الحقيقة » : فالحقيقة حقيقتان ؛ حقيقة كونيَّة ، وحقيقة دينية ، يجمعهما حقيقة ثالثة ، وهي مصدرهما ومنشؤهما وغايتهما .

وأكْثر أرباب السلوك مِن المتأخِّرين إنما يريدون بالحقيقة : الحقيقة الكونية . وشهودها : هو شهودُ تفرُّد الربّ بالفِعْل ، وأنَّ ما سواه محلُّ جريان أحكامه وأفعاله ؛ فهو كالحفير الذي هو محلٌّ لجريان الماء حسب . وعندهم أنَّ شهودَ هذه الحقيقة والفناءَ فيها ، غاية السالكين . ومنهم : مَن يشهد حقيقة الأزليَّة والدوام وفناء الحادثات وطيَّها ، في ضِمْن بساط الأزليَّة والأبديّة وتلاشيها في ذلك ؛ فيشهدها معدومة ، ويشهد تفرُّد موجدها بالوجود الحقِّ بالحقّ ، وأن وجود ما سواه رسومٌ وظلالٌ .

فالأول : شَهد تفرّدَه بالأفعال ، وهذا : شهد تفرُّده بالوجود . وصاحبُ الحقيقة الدينية في طَوْرٍ آخر ؛ فإنه في مشهد الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والموالاة والمعاداة ، والفَرْق بين ما يحبّه الله ويرضاه ، وبين ما يبغضه ويسخطه ؛ فهو في مقام الفرْق الثاني الذي لا يحصلُ للعبد درجة الإسلام - فضلًا عن مقام الإحسان - إلّا به .

فالمعرض عنه صفحًا لا نصيب له في الإسلام ألبتة ، وهو كالذي كان

الجنيد يوصي به أصحابه ، فيقول : « عليكم بالفرْق الثاني » . وإنما سُمِّي ثانيًا ؛ لأن الفَرْق الأول : فرقٌ بالطبع والنفس ، وهذا فَرْق بالأمْر .

والجمع أيضا جمعان : جَمْعٌ في فَرْق ، وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد . وجمع بلا فَرْق ، وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد .

فالناس ثلاثة : صاحبُ فَرْقٍ بلا جَمْع ، فهو مذموم ناقص مخذول . وصاحب جمْعٍ بلا فرْق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد ؛ فصاحبه مُلْحد زنديق . وصاحب فرْق وجمْع ، يشهد الفرْق في الجمع ، والكثرة في الوحدة ، فهو المستقيم الموحِّد الفارق . وهذا صاحب الحقيقة الثالثة ، الجامعة للحقيقتين الدينية والكونية ؛ فشهودُ هذه الحقيقة الجامعة : هو عينُ الاستقامة .

وأما شهودُ الحقيقة الكونية – أو الأزليّة – والفناء فيها ، فأمْرٌ مُشتَرك بين المؤمنين والكفار ؛ فإن الكافر مقرٌّ بقَدَر الله وقضائه ، وأزليَّته وأبديَّته ، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه ، فقد شَهِد الحقيقة .

وأما قوله : « لا كسْبًا » . أي : يتحقق عند مشاهدة الحقيقة ، أن شهودها لم يكن بالكسْب ؛ لأن الكسْب من أعمال النفس ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس ؛ إذ الحقيقة فردانيّة أحديّة نورانيّة ، .فلا بدّ من زوال ظُلمة النفس ، ورؤية كسْبها ، وإلّا لم يشْهد الحقيقة .

وأمّا « رفْض الدعوى لا علمًا »: فـ « الدعوى » : نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنِّيَّتك . فالاستقامة لا تصحّ إلّا بتَرْكها ، سواء كانت حقا أو باطلا ، فإن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟!

وأما قوله : «لا علمًا» . أي : لا يكون الحامل له على تَرْك الدعوى ، مجرّد علمه بفساد الدعوى ومنافاتها للاستقامة ؛ فإذا تَركها يكون تَرْكها لكون العِلْم قد نهى عنها ، فيكون تاركا لها ظاهرًا لا حقيقة ، أوْ تاركا لها لفظًا ، قائمًا بها حالا ؛ لأنه يرى أنه قد قام بحق العِلْم في تَرْكها ، فيتركها تواضعًا ، بل يتركها حالا وحقيقة ، كما يترك من أحبَّ شيئًا تضرُّه محبَّتُه حُبَّه حالا وحقيقة .

وإذا تحقَّق أنه ليس له من الأمر شيء - كما قال الله عز وجل لخير خلقه على الإطلاق : ﴿ **ليس لك مِن الأمْرِ شيءٌ** ﴾ - تَرَكَ الدعوى شهودًا وحقيقة وحالا .

وأمّا « البقاء مع نور اليقظة » : فهو الدوام في اليقظة ، وأن لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة ، بل يستديم يقظته ، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه حفظًا من الله له ، لا أنّ ذلك حَصَل بتحفُّظه واحترازه .

فهذه ثلاثة أمور ؛ يقظة ، واستدامة لها ، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك ، فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحِفْظه ، بل بحِفْظ الله له .

وكأنَّ الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة ، لا تحصُل بكسْب وإنما هو مجرّد موهبة من الله ، فإنه قال في الأولى : « الاستقامة على الاجتهاد » . وفي الثانية : « استقامة الأحوال ، لا كسبًا ولا تحفُّظًا » . ومنازعتُه في ذلك متوجّهة ، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسْبًا ، بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام .

نعم الذي يُنْفَى في هذا المقام : شهود الكسْب ، وأن هذا حصل له بكسبه . فَنفْي الكسْب شيءٌ ، ونفي شهوده شيءٌ آخر .

ولعلَّ أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي ، إن شاء الله تعالى » .

قال الهرويُّ : « **الدرجة الثالثة** : استقامة بترك رؤية الاستقامة ، وبالغيبة عن تطلُّب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق » .

قال ابن القيم : « هذه الاستقامة معناها : الذهول بمشهوده عن شهوده ، فيغيب بالمشهود المقصود - سبحانه - عن رؤية استقامته في طلبه ، فإن رؤية الاستقامة ، تحجبه عن حقيقة الشهود .

« وأما الغيبة عن تطلُّب الاستقامة » : فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد ، وتقويمه إياه ؛ فإنه إذا شَهِد أن الله هو المقيم له والمقوِّم ، وأن

استقامته وقيامه بالله ، لا بنفسه ولا بطلبه - غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها . وهذا القدْر من موجبات شهود معنى اسمه « القيُّوم » ، وهو الذي قام بنفسه ، فلم يحتج إلى أحد ، وقام كلُّ شيءٍ به فكلُّ ما سواه محتاج إليه بالذات ، وليست حاجته إليه معلّلة بحدوث كما يقول المتكلِّمون ، ولا بإمكان كما يقول الفلاسفة المشَّاءون ؛ بل حاجته إليه ذاتيَّة ، وما بالذَّات لا يعلَّل » .

أبو سفيان بن الحارث الصحابي الجليل ، لم يتنَطَّف بخَطِيئَة منذ أسلم إلى أن مات :

لله درُّه من سيِّد ، أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، كان أخا النبي ﷺ من الرضاعة .

قال أبو إسحاق السبيعي : « لما احْتُضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، قال : لا تبكوا عليَّ ، فإني لم أتنطَّف[1] بخطيئة منذ أسلمت »[2] .

لله درُّه ، ثنتا عشرة سنة لم يفعل خطيئة ، وحياتُه كلُّها طاعة .

« كان يصلِّي في الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة ، ثم يصلِّي من الظهر إلى العصر »[3] .

الربيع بن خثيم : أنموذج مثاليّ في الاستقامة :

عن مسلم البطين: «أنَّ الربيع بن خثيم –أو خيثم – جاءته ابنته ، فقالت : يا أبتاه ، أذهب ألعب ؟ قال : اذهبي فقولي خيرًا »[4] .

لا ينطق أبدًا بكلمة اللعب ... فما بال أقوام لا يفيقون من اللهو واللعب.

قيل له رحمه الله : « ألا تتمثَّل ببيت شعر ، فقد كان أصحابُك يتمثَّلون ؟

---

(١) أي لم أتلطَّخ بها .
(٢) السير ١/٢٠٤ ، والطبقات لابن سعد ٣٧/١/٤ ، والاستيعاب ٢٩١/١١ - ٢٩٢ .
(٣) السير ١/٢٠٥ .
(٤) الحلية ١١٥/٢ .

قال : ما من شيء يُتمثَّل به إلا كُتِبَ ، وأنا أكره أنْ أقرأ في إمامي بيتَ شعر يوم القيامة »[١] .

وقال رجل : صَحِبْنا ربيع بن خثيم عشرين سنة ، فما تكلَّم إلّا بكلمة تصْعد . وعن رجل من بني تيم : جالستُ الربيع عشر سنين ، فما سمعتهُ يسأل عن شيء من أمْر الدنيا إلّا مرتين ؛ قال مرة: والدتك حيَّة ؟ وقال مرة: كم لك مسجدا ؟ وقال بعضهم : صحبتُ الربيع عشرين عامًا ، ما سمعت منه كلمة تُعاب .

ويوم قُتِل الحسين بن علي رضي الله عنه ، قال رجل : « إن لم أستخرج اليوم سيئة من الربيع لأحدٍ ، لم أستخرجها أبدًا . قال : قلت : يا أبا يزيد ، قتل ابن فاطمة عليهما السلام . قال : فاسترجع ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **قل اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأَرْضِ عالمَ الغَيْبِ والشهادة أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ [الزمر : ٤٦] . قال : قلت : ما تقول ؟ قال : ما أقول ؟! إلى الله إيابُهم ، وعلى الله حسابُهم »[٢] .

فرحم الله الربيعَ تلميذَ عبد الله بن مسعود ، فقد كان – والله – من معادن الصدق والاستقامة .

وهب بن منبّه : لم يسبَّ شيئا فيه الروح أربعين سنة :

قال المثنى بن الصباح : « لبث وهب بن منبّه أربعين سنة لم يسبَّ شيئا فيه الروح ، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا .

وعن عبد المنعم بن إدريس ، عن أبيه ، قال : كان وهب يحفظُ كلامَه كلَّ يوم ، فإن سلم أفطر ، وإلا طوى »[٣] .

---

(١) الحلية ١١٣/٢ .
(٢) الحلية ١١١/٢ .
(٣) السير ٥٤٧/٤ .

عبد الله بن عون بن أرطبان : عالم البصرة ، القدوة ، الإمام :

قال خارجة بن مصعب : صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أنَّ الملائكة كتبت عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكهم للسانه .

وعن معاذ بن معاذ : حدَّثني غير واحد من أصحاب يونس بن عُبيد أنه قال : إني لأعرف رجلا منذ عشرين سنة ، يتمنَّى أنْ يَسْلَم له يومٌ من أيام ابن عون ، فما يقدر عليه[١] . رحم الله سيِّد القراء في زمانه : عبد الله بن عون .

عن مكي بن إبراهيم ، قال : « كنَّا عند عبد الله بن عون ، فذكروا بلال ابن أبي بُردة ، فجعلوا يلعنونه ، ويقعون فيه - يعني لجوره وظلمه - قال : وابن عون ساكت ، فقالوا له : إنما نذكره لما ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة ؛ لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانًا .

وعن ابن المبارك قال : قيل لابن عون : ألا تتكلَّم فتُؤجر ؟ فقال : أما يرضى المتكلِّم بالكفاف »[٢] .

قال الذهبي في السير : « كان ابن عون عديم النظير في وقته ؛ زهدًا وصلاحًا ، وقد كان ابن عون قد أوتي حلمًا وعلمًا ، ونفسًا زكيَّة تُعِين على التقوى ، فطوبى له »[٣] .

قال بكَّار بن محمد السِّيريني : ما رأيتُ ابن عون يُماري أحدًا ولا يُمازحه ،

---

(١) السير ٦/٣٦٦ .
(٢) السير ٦/٣٦٩ .
(٣) السير ٦/٣٦٩ ، ٣٧٥.

ما رأيتُ أملك للسانه منه . وكان إذا جاءه إخوانُه ، كأنّ على رؤوسهم الطير ، لهم خشوع وخضوع ، وما رأيته مازح أحدًا ، ولا ينشدُ شعرًا ، كان مشغولًا بنفسه . وكان له ناقة يغزو عليها ويحجُّ ، وكان بها معجبًا ، فأمر غلامًا له يستقي عليها ، فجاء بها وقد ضربها على وجهها ، فسالتْ عينُها على خدِّها ، فقلنا : إن كان من ابن عون شيءٌ ، فاليوم . قال : فلم يلبث أن نزل ، فلما نظر إلى الناقة ، قال: سبحان الله ، أفلا غيرَ الوجه ، بارك الله فيك ، **اخرج عني، اشهدوا أنه حُرّ**[(١)] .

الإمامُ الحجَّة يونس بن عُبيد بن دينار : ما حَضَر حقٌّ لله ، إلّا وهو متهيِّئٌ له :

عن سلام بن مطيع ، قال : ما كان يونس بأكثرهم صلاة ولا صومًا ، ولكن لا والله ما حَضَر حق لله ، إلّا وهو متهيئٌ له[(٢)] .

وقال سلمة بن علقمة : جالستُ يونس بن عبيد ، فما استطعت أنْ آخذ عليه كلمة[(٣)] .

طبيب القلوب ، الوَرِعُ التقيّ ، وهيب بن الورد المكّي : « لا يجدُ طعْمَ العبادة مَن همّ بمعصيةٍ » :

كان سفيان الثوريّ إذا حدّث الناس في المسجد الحرام وفرغ من الحديث ، قال : قوموا إلى الطبيب ؛ يعني : وهيبًا[(٤)] .

قال وهب رحمه الله : إن استطعتَ أن لا يشغلك عن الله تعالى أحدٌ ، فافعل .

وعن محمد بن يزيد قال : حَلَف وهيب أن لا يراه الله ولا أحدٌ من خَلْقه ضاحكًا ، حتى يأتيه الرسل من قِبَل الله عند الموت فيخبرونه بمنزله عند الله . **قال : وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة ، فإذا أُخبر بها اشتدَّ بكاؤه،**

---

(١) السير ٦/٣٧١
(٢) السير ٦/٢٩١
(٣) السير ٦/٢٨٩
(٤) الحلية ٨/١٤٠

وقال : قد حسبتُ أن يكون هذا من الشيطان .

عن عبد الله بن المبارك قال : قيل لوهيب بن الورد : أيجدُ طعم العبادة من يعصي الله ؟ قال : لا ، ولا مَن همَّ بمعصيةٍ[(١)] .

وقال رحمه الله : لا يكون همُّ أحدكم في كثرة العمل ، ولكن ليكن همُّه في إحكـامه وتحسينه ؛ فإن العبـد قد يصلِّي وهو يعصي الله في صلاته ، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه .

وقال رحمه الله : لَأَن أدَع الغيبة ، أحبُّ إليّ من أن يكون لي الدنيا – منذ خُلِقت إلى أن تفنى – فأجعلها في سبيل الله ، ولأن أغضّ بصري ، أحبُّ إليّ من أن تكون لي الدنيا – منذ خُلقت إلى أن تفنى – فأجعلها في سبيل الله ، ثم تلا : ﴿ **قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجهم ...** ﴾ .

ولله ما أجمل قوله في تَرْك ظاهر الإثم وباطنه ، **قال** : « اتَّقِ الله أن تسبَّ إبليس في العلانية ، وأنت صديقُه في السرِّ »[(٢)] .

بشر بن الحارث الحافي : ما عُرف له غيبةٌ لمسلم :

إمام الناس ، الذي قال عنه الإمام أحمد يومَ بَلَغه موته : مات رحمه الله ، ولم يكن له نظير في هذه الأُمَّة ، إلَّا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوَّج كـان قـد تمَّ أمره ، وما ترك بعده مثلَه .

قال عنه تلميذه إبراهيم الحربي : ما أخرجتْ بغدادُ أتمَّ عقلًا منه ، ولا أحْفَظ للسانه من بشر،ما عُرف له غِيبةٌ لمسلم .

وقال الخطيب البغدادي: كان بشر ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل ، وأنواع الفضْل ، وحُسْن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعُزوف النفس .

---

(١) الحلية ٨/١٤٤ ، والسير ٧/١٩٩

(٢) الحلية ٨/١٥٤ .

قال محمد بن المثنى : قلتُ لأحمد : ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أي الرجال ؟ قلت : بشر . فقال لي : ما مثله عندي إلَّا مثل رجل ركَّز رُمحًا في الأَرض ، ثم قعَد منه على السِّنان ، فهل تَرَكَ لأحدٍ موضعا يقعد فيه ؟

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال ابن كثير : وحين مات بشر ، اجتمع في جنازته أهلُ بغداد عن بكرة أبيهم ، فأُخْرج بعد صلاة الفجر ، فلم يستقرَّ في قبره إلّا بعد العتمة ، وكان النهار نهارًا صائفًا فيه طُول .

قال يحيى بن عبد الحميد الحمّاني: رأيتُ أبا نصر التمَّار وعليّ بن المديني في جنازة بشر ، يصيحان في الجنازة : هذا والله شَرَفُ الدنيا قبل شرف الآخرة .

داود الطائي : « هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب » :

قال ابن المبارك : وهل الأمر إلّا ما كان عليه داود الطائي .

قال سهل بن بكَّار : قالت أختٌ لداود الطائي : لو تنحيتَ من الشمس إلى الظِّل قال : هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب .

هذا والله منتهى علوّ الهمَّة في الاستقامة .

وكيعُ بن الجرّاح :

ووكيع بن الجراح كان كلامه نزرًا جدًّا في الرجال . قال الفلّاس : ما سمعتُ وكيعًا ذاكرًا أحدًا بسوءٍ قطّ[1] .

وعن مُليح بن وكيع قال : لما نزل بأبي الموت ، أخرج يديه ، فقال : **يا بني،** ترى يديّ ؛ ما ضربتُ بهما شيئا قط . قال مليح : فحدّثت بهذا داود بن يحيى بن يمان ، فقال : رأيت رسول الله ﷺ في النوم ، فقلت : **يا رسول الله،**

---

(١) السير ٩/ ١٥٨ ، ١٥٩ .

مَنِ الأبدال ؟ قال : « الذين لا يضربون بأيديهم شيئا ، وإنَّ وكيعًا منهم »[(١)] .

الإمامُ الكبير ، يحيى بن سعيد القطان :

قال بندار : « اختلفتُ إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة ، ما أظنّه عصى الله قط ، لم يكن في الدنيا في شيءٍ »[(٢)] .

فرحم الله هذا العبد الصالح ، الذي كان يدعو لألف إنسان كلَّ يوم .

سيِّد الحفَّاظ ، عبد الرحمن بن مهدي :

« قال رحمه الله : ما تركتُ حديث رجل ، إلّا دعوتُ الله له وأُسمِّيه .

ورُوي عنه أنه قال : لولا أني أكره أن يُعصى الله ، لتمنَّيتُ أنْ لا يبقى **أحدٌ في المصر إلَّا اغتابني ؛ أيّ شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها ؟! »**[(٣)] .

إمام الدنيا ، أحمد بن حنبل :

قال إبراهيم الحربي : يقول الناس : أحمد بن حنبل . بالتوهُّم ، والله ما **أجد لأحد من التابعين عليه مزيَّة ، ولا أعرف أحدًا يُقْدَر قَدْره ، ولا يُعرف** لأحدٍ من الإسلام محلَّه ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاءً ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاةً في يوم ، إلّا وهو زائد عليه بالأمس . **ولقد كان يقْدُمُ** أئمة الإسلام العلماء من كلِّ بلد ، وإمام كلّ مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجلُ منهم خارجًا من المسجد ، **فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلِّمًا**[(٤)] .

---

(١) السير ٩/١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) السير ٩/١٧٨ .

(٣) السير ٩/١٩٥ – ١٩٦ .

(٤) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٢ .

قال أبو داود السجستاني : لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيءٍ ، مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذُكِر العلمُ تكلَّم .

ناصُر السُّنَّة ، الإمام الشافعي :

قال حرملة : سمعت الشافعي يقول : ما حلفتُ بالله صادقًا ولا كاذبًا[١] .

شيخ الإسلام ، الذُّهلي محمد بن يحيى :

قال أبو العباس الأزهري : سمعتُ خادمة محمد بن يحيى ، وهو على السرير يُغسَّل ، تقول : خدمته ثلاثين سنة ، وكنت أضع له الماء ، فما رأيتُ ساقه قطّ ، وأنا مِلْكٌ له[٢] !!

شيخ خراسان القدوة الرباني ؛ أبو حفص النيسابوري :

قال رحمه الله : من لم يزن أحوالَه كلَّ وقْت بالكتاب والسنة ، ولم يَتَّهم خواطرَه ، فلا تعُدَّه .

ولله درُّه ، وما أعلى استقامته حين يقول : « حرستُ قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة ، ثم وردتْ علي وعليه حالةٌ صرنا محروسَيْن جميعا »[٣].

أيّ أناسٍ كان هؤلاء السادة ؟! وأيّ أمْر أبي حفص لم يكن بعجيب ؟! هذا الإمام الذي أنفَذ - في يوم واحد - بضعةَ عشر ألف دينار يَفْتكُّ بها أسرى ، فلما أمسى لم يكن له عشاء .

أمير المؤمنين في الحديث : البخاري ؛ لا يكون له خَصْمٌ في الآخرة :

قال بكر بن منير : سمعتُ أبا عبد الله البخاري يقول : أرجو أن ألقى الله

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/٥٤ ، وتوالي التأسيس ص ٦٧ .
(٢) السير ١٢/٢٧٩ .
(٣) السير ١٢/٥١٠ - ٥١٣ .

ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا .

قال الذهبي في « السير » (١٢/٤٣٩ - ٤٤١) : « صدق رحمه الله ، ومن نَظَر في كلامه في الجرح والتعديل ، علم ورعه في الكلام في النـاس ، وإنصافه فيمن يضعِّفه ؛ فإنه أكثر ما يقول : مُنكَرُ الحديث ، سكتـوا عنه ، فيه نظر . ونحو هذا ، وقلَّ أن يقول : فلانٌ كذَّاب ، أو كان يضع الحديث . حتى إنه قال : إذا قلتُ فلان في حديثه نظر ، فهو مُتَّهم واهٍ . وهذا معنى قوله : لا يحاسبني الله أنِّي اغتبتُ أحدًا . وهذا هو والله غاية الورع .

قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : سمعته - يعني البخاري - يقول : لا يكـون لي خَصْم في الآخرة . فقلت : إنَّ بعض الناس ينقمـون عليك في كتاب « التاريخ » ، ويقـولون : فيه اغتياب الناس ، فقـال : إنما روَيْنا ذلك روايـةً ، لم نقُلْه من عند أنفسنا ، قال النبي ﷺ : « بئس مولى العشيرة ... » يعني : حديث عائشة[1] .

الإمام الحافظ المقرئ : أبو الحسين الحجَّاجي محمد بن محمد :

قال الحاكم : كان أبو الحسين الحجّاجي من الصالحين المجتهدين بالعبادة ، صحبتُه نيِّفًا وعشرين سنة بالليل والنهار ، فما أعلم أن الملَك كتب عليه خطيئة[2] .

الحافظ ابن عساكر :

قال ابنه القاسم : كان يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة .

وقال أبو المواهب : لم أر مثله ، ولا مَن اجتمع فيه ما اجتمع مِن لـزوم

---

(١) أخرجه مالك ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وأحمد .
(٢) السير ١٦/٢٤١ .

طريقة واحدة مدَّة أربعين سنة[١] .

الحافظ ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن محمد بن إدريس : لا يُعرَف له ذنب :

كان رحمه الله بحرًا لا تكدِّره الدِّلاء .

قال عنه أبوه أبو حاتم : « **ومَن يقوى على** عبادة عبد الرحمن ؟! لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا »[٢] .

وقال علي بن أحمد الفرضي : ما رأيت أحدًا ممن عَرَف عبد الرحمن ذَكَر عنه جهالةً قطّ .

وقال علي بن محمد البصري - وهو في جنازة ابن أبي حاتم - : قلنسوة عبد الرحمن من السماء ، وما هو بعجب ؛ رجلٌ منذ ثمانين سنة على وتيرةٍ واحدة ، **لم ينحرف عن الطريق**[٣] .

قال علي بن إبراهيم الرازي : كان ابن أبي حاتم قد كساه الله بهاءً ونورًا يسرُّ مَن ينظر إليه . دخل محمد بن مهرويه الرازي عليه يومًا ، وهو يقرأ على الناس كتاب الجرح والتعديل ، فحدَّثه بقول يحيى بن معين : « إنَّا لنطعن على أقوام ، لعلَّهم قد حطّوا رحالَهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة[٤] » . فبكى ، وارتعدتْ يداه ، حتى سقط الكتاب ، وجعل يبكي ويستعيده الحكاية .

الإمام الجليل أبو الطيِّب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر : « ما عصى الله بجارحةٍ قطّ » :

اشتهر اسمه، فملأ الأقطار. وشاع ذكْره، فكان أكثر حديث السمَّار. وطاب

---

(١) السير ٢٠/٥٦٢ ، ٥٦٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/٨٣٠ ، والسير ١٣/٢٦٥ .

(٣) طبقات السبكي ٣/٣٢٥ .

(٤) قال الذهبي في السير ١٣/٢٦٨ : لعلّها من مائة سنة .

ثناؤه ، فكان أحسن من مِسْك الليل وكافور النهار .

«قال القاضي أبو بكر الشامي: قلت للقاضي أبي الطيب شيخنا– وقد عُمّر–: لقد مُتِّعْتَ بجوارحك . فقال : لم لا ، والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط »[١] .

وعن القاضي أبي الطيب، أنه رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: «يا فقيه» وأنه كان يفرح بذلك ، ويقول : سمَّاني رسول الله ﷺ فقيهًا

ركْنُ الإسلام ، الشيخ أبو محمد الجويني : عبد الله بن يوسف بن حَيُّويَه

والد إمام الحرمين ، أوحد زمانه عِلْمًا ، ودينًا وزهدًا ، وتقشُّفًا زائدا ، وتحرِّيًا في العبادات .

« قال أبو سعيد بن أبي القاسم القشيري : كان أئمتنا في عصره والمحقّقون من أصحابنا ، يعتقدون فيه من الكمال والفضْل والخصال الحميدة ، أنه لو جاز أن يبعث الله نبيًّا في عصره ، لما كان إلّا هو ؛ من حُسْن طريقته وزهده وكمال فضْله .

قال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني : لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل ، لنُقل إلينا شمائله ولافتخروا به »[٢] .

الإمام القدوة ابن دقيق العيد ، محمد بن عليّ بن وهْب :

كان حافظًا للسانه ، مقبلًا على شانه ، وقَفَ نفسَه على المعالي وقصَرها ، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله : « ما تكلَّمتُ كلمة ، ولا فعلتُ فِعْلًا ، إلّا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله عز وجل »[٣] .

---

(١) طبقات السبكي ١٥/٥ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٧٤/٥ .

(٣) طبقات الشافعية ٢١٢/٩ .

الإمام تقي الدين ، أبو عمرو بن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن :

« قال رحمه الله : ما فعلتُ صغيرةً في عمري قطّ »[(١)] .

وهذا فضْل من الله عليه عظيم ... لم يكن ابن الصلاح ، بل هو والله الصلاح ذاته ؛ يعيد زمان السالفين استقامة وجدًّا .

الإمام الزاهد العماد المقدسي ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد :

قال عنه الإمام موفَّق الدين ابن قدامة : ما نقدر نعمل مثل العماد .

وقال عنه الإمام محاسن بن عبد الملك التنوخي: كان الشيخ العماد جوهرة العصر .

قال الضياء المقدسي : سمعت خالي الموفق يقول : من عمري أعرفه – يعني العماد – ما عرفت أنه عصى الله معصية[(٢)] .

ومع هذا كان دعاؤه المشهور : اللهم اغفر لأقسانا قلبًا ، وأكبرنا ذنبًا ، وأثقلنا ظهرًا ، وأعظمنا جُرْمًا ... يا دليل الحيارى ، دلَّنا على طريق الصادقين ، واجعلنا من عبادك الصالحين .

ولما جاءه الموت جعل يقول : يا حيُّ يا قيوم ، لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث . واستقبل القبلة وتشهَّد .

وختام المسْك : شيخ الإسلام ابن تيمية : « إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقْت »

انظر إلى هذا الجبل الربَّاني ، الذي يقول قولًا تتضاءل كلُّ الأقوال إلى جانبه : والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقْت وما أسْلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

---

(١) طبقات الشافعية ٨/٣٢٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/٥٠ .